اللغة والأدب-مجلة علمية محكّمة
ISSN: 1111-1143 EISSN: 2602-5202
العدد:32 المجلد:17؛ الشهر/السنة:2020

Language and Literature
A peer-reviewed Scientific journal
Issued by
the Departement of Arabic Language
and Literature

اللغة والأدب

I.S.S.N: 1111-1143
E.I.S.S.N: 2602-5205

اللغة والأدب
مجلة علمية محكّمة
يصدرها
قسم اللغة العربية
وآدابها

في إمكانية علمنة اللغة وأسئلة اللسانيات العربية

De la possibilité de séculariser la langue face aux questions de la linguistique arabe

أ.جمال بلعربي **Djamel Belarbi**

-مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية-بوزريعة (الجزائر)

Centre de Recherche Scientifique et Technique pour le Développement de la Langue Arabe Bouzereah-Algérie

Djamelbelar@gmail.com

المؤلف المرسل(باللغتين): الاسم الكامل:	الإيميل:
جمال بلعربي Djamel Belarbi	Djamelbelar@gmail.com
تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:
2018/07/02	2020/01/23

ملخص:

نحاول في هذه الورقةإعادة طرح سؤال دريدا حول إمكانية علمنة اللغة؟ من خلال مناقشته لرسالة قرشوم شوليم حول الأخطار المختبئة خلف مشروع علمنة اللغة العبرية والسعي إلى إحيائها وبعثها من جديد. ونضع النقاش في سياق الأسئلة الجوهرية المتعلقة باللغة العربية.

نعتقد أن مثل تلك المناقشة تكتسي أهمية خاصة في راهن ورث عن تاريخه الدموي صيغا خاصة جدا لمفاهيم الوطنية والهوية واللغة الوطنية... ومشاريع سياسات لغوية مرتجلة في الغالب، ومن وضع ساسة تقودهم ردود الفعل الانفعالية بدلا من البحث العلمي والتفكير الفلسفي العالم، لحل المشكلات التي تأسست من أجلها علوم برمتها ويشتغل حولها باحثون وعلماء، كثيرا ما يتجاهلهم الساسة ويغيبون مواقفهم. ففي سياق هذا الواقع وما يحمله من تجارب، نطرح سؤال علمنة اللغة، وتخليصها من الحمولة الدينية، حين تكون لغة النص المقدس، من وجهة نظر دريدا، قارئ هيلمسلاف، أي المتشبع بتصور اللغة التي يتشكل العالم أثناء تشكلها، وفي إطار برنامج دريدا الفلسفي، القائم على مبدأ الاختلاف، وليس الخلاف، ولا المخالفة، بمعنى الاختلاف في طريقة التفكير، وليس الخلاف حول نتائجه، ولا حول ما ينتجه التفكير الأحادي من أفكار تبدو "مختلفة"؛ سنحاول أن نطرح سؤال اللغة العربية، ذات الحمولة الدينية المعلنة صراحة، والحمولة الإيديولوجية المضمرة، في مشاريع "إحيائية"، تتخبط بين الانغلاق المستحيل داخل النص الأصلي، والهجرة السليبة إلى لغات أخرى، وبين هذا وذاك مواصلة اليتم في غياب "اللغة".

الكلمات المفتاحية: دريدا - علمنة اللغة - هيلمسلاف - الاختلاف - النص المقدس.

:Résumé

Nous essayons dans cet article de poser et analyser la question de Derrida sur la possibilité de séculariser la langue, dans le contexte des questions relatives à la langue arabe, et plus précisément, cette langue arabe telle qu'elle est conçue par ses propres linguistes et grammairiens. Ceci à partir de la lettre de Guershom Scholem à Franz Rosenzweig à propos de l'Hébreu. Il est clair que les questions de la langue sont directement liées aux notions de l'identité, la patrie... Etc. mais séculariser une langue dans le sens de la vider de toute charge violente et de toute teneure religieuse productrice d'une violence quelconque, serait une tentation plus politique que

scientifique. Nous allons encadrer cette analyse avec les concepts linguistiques .structuraux et notamment glossématiques

Mots-clés: Derrida – Sécularisation de la langue – Hjelmslev – Différence – Textes sacrés

مقدمة:

لعله من المغامرة في مثل هذا السياق أن نطرح السؤال حول راهن اللغة العربية على خلفية النقاش حول إمكانية علمنة اللغة؛ خاصة عندما تحتوي تلك اللغة على حمولة من القداسة قد اكتسبتها من اقترانها بالنص المقدس ومن التأسيس اللساني الواصف الذي من بين أهم دوافعه التاريخية خدمة النص المقدس. لكن مثل هذه التساؤلات ضرورية بالنسبة للغة العربية خاصة وأنها الآن تشهد نقلة نوعية في الطرح والمقاربة تشترك فيها مختلف الأقطار الناطقة بها، بل ويشارك فيها أيضا المهتمون من مختلف البلدان بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وللباحثين والإعلاميين والسياسيين المهتمين بما تشهده البلدان العربية من أحداث سياسية واقتصادية وما تملكه الثقافة العربية من تراث إنساني غزير، لكن ذلك للأسف، يحدث في غياب مبحث علمي يمكن أن نسميه اللسانيات العربية؛ بل يحدث تحت باب اللسانيات العامة، وما تولد من المفاهيم عن البحوث اللسانية الخاصة باللغة الفرنسية أو الإنجليزية، وفي أحسن الأحوال، عن اللغة الافتراضية المسماة بالهندية الأوروبية.

نحاول في هذه الفقرات أن نطرح ونناقش هذه الإشكالية انطلاقا من نص كتبه جاك دريدا حول رسالة كتبها قرشوم شوليم سنة 1926 معبرا فيها عن تخوفه مما يمكن أن ينتج عن عملية إحياء اللغة العبرية من طرف أصحاب المشروع الصهيوني، من خطر على الأجيال القادمة والتي تنتقل إليها تلك اللغة محملة بشحنة القداسة، في غير زمنها وفي غير سياقها التاريخي المناسب. وننطلق في المقاربة من قراءة الفيلسوف جاك دريدا للنص وتصوره للغة ومعاناته مع لغة الآخر وما يسميه بأحادية لغة الآخر التي تتحول إلى لغة أم محاطة بكثير من الأسئلة المتعلقة بالهوية. وسنحاول أن نجعل النقاش يتمفصل حول النقاط التالية:

- رسالة قرشوم شوليم: خطورة إحياء المقدس
- قراءة جاك دريدا: مغامرة علمنة اللغة
- تجربة جاك دريدا: مع المواطنة الممنوحـ/ـة والأحادية اللغوية عند الآخر
- اللغة في تصور هيلمسلاف: تقطيع يشكل العالم ويتشكل من خلاله
- أسئلة اللغة العربية: بين القداسة والراهن المتجدد

1- رسالة قرشوم شوليم: خطورة إحياء المقدس

يتعلق الأمر برسالة[1] كتبها اليهودي الصهيوني[2] الألماني قرشوم شوليم[3] سنة 1926 وعثر عليها بين وثائقه ونشرت سنة 1985، وقد كانت موجهة لراهب يهودي، لكن مناهض للصهيونية[4]، هو فرانس روسنسفايغ، باللغة الألمانية، حول مشروع إحياء اللغة العبرية الذي تعتبره الحركة الصهيونية خطوة أساسية في مشروع الدولة الدينية اليهودية.

تتحدث الرسالة عن الخطورة الكبيرة التي ستنجم عن مشروع إحياء اللغة العبرية وتلقينها للشباب اليهودي كلغة أم تمت علمنتها وفي الوقت نفسه كلغة عصرية لليهود عبر العالم.

يقول قرشوم إن اللغة العبرية، لغة العبادة عند اليهود، محملة بإرث مقدس لا يمكن تخليصها منه، وبسببه لا يمكن أن تتحول إلى لغة علمانية مفرغة من الحمولة الدينية. وبذلك فهذا المشروع كالبركان يهدد بالانفجار وبتحيين ذلك الماضي الدفين، والذي سيدفع ثمن بعثه هي أجيال من أبناء اليهود، ولا أحد يعرف متى تغلق أبواب الجحيم[5] التي سيفتحها ذلك المشروع.

يصر كاتب الرسالة على أن اللغة العبرية، وربما اللغة التي تحمل نوعا من القداسة الدينية، بصورة عامة، لا يمكن أن تتعلمن. فاللغة هي الأسماء، وتلك الأسماء، حين تثار بعنف الإحياء، تشبه البركان الذي يهدد بالفوران في أية لحظة، ولذلك فإن محاولة بعث اللغة العبرية هي بمثابة عملية تأجيج لذلك البركان، وهي في نظر كاتب الرسالة أخطر بكثير من "التهديد الذي يواجهه اليهود من الحركة القومية العربية"[6]. إنه استحضار لماض سحيق بكل ما يحتوي عليه من المعنى، والأسماء تعج بالمعنى إلى درجة الانفجار، وكأن القوة المقدسة ستتكلم من جديد من خلال تلك الأسماء.

إن علمنة اللغة في نظر كاتب الرسالة مجرد تعبير لا معنى له[7]، وإذا كان لا بد من الحديث عن علمنة ممكنة فيجب أن نبحث عنها في ما يتكلمه الناس في حياتهم اليومية، وما يحتوي عليه من بقايا تلك اللغة القديمة. أما السعي لإحياء اللغة القديمة، بالصورة نفسها التي كانت عليها قبل قرون، فأمر يخرج عن نطاق العلمنة.

2- قراءة جاك دريدا: مغامرة علمنة اللغة

يتلقى[8] دريدا الرسالة التي تم العثور عليها بعد وفاة كاتبها، بالمنطق نفسه الذي يعبر به مضمونها، فهي رسالة تم إحياءها وبعثها لتعبر عن تهديدات وأخطار تحصل في زمن القراءة. وكأن عائدا من العالم الآخر جاء ليعلن عن عودة شبح[9]. ويقوم دريدا بإدراج

---

1 - Une lettre inédite de Gershom Scholem à» Franz Rosenzweig à propos de notre langue» in « Derrida, J. Les yeux de la langue. L'Herne, Paris 2005, pp. 7-11.

2 - نستعمل هنا صفة "صهيوني" بدون أي موقف إيديولوجي أو سياسي تجاه صاحب الرسالة، ونوضح بأنها صفة يطلقها هو على نفسه ويصف بها مراسله كتمييز حركي سياسي وديني في الوقت نفسه.

3 - Derrida, J. Le monolinguisme de l'autre ou la parole d'origine. Galilée, Paris 96, p. 94.

4 - Derrida 2005, p. 19.

5 - Idem.

6 - Idem.

7 - Derrida 2005, p. 8.

8 - يعتبر دريدا قراءته تحاول أن تكون قراءة من الداخل intérieure قدر المستطاع لأنه لا يؤمن بإمكانية إجراء قراءة داخلية interne. (انظر Derrida 2005, p. 30).

9 - Ibid, p. 12.

الرسالة في سياق المذكرات والمراسلات التي جرت بين الكاتب ومراسله، والمواقف التي تميز بها كل منهما، تجاه ما تطرحه من قضايا: اليهودية، واللغة العبرية، والصهيونية.

هي رسالة بمثابة الاعتراف[10] وهي تتعلق باللغة العبرية على الرغم من أنها مكتوبة بلغة أجنبية، غير المقدسة، وتناقش لغة كاتبها، العبرية (المفارقة): فاللغة الحالية، لغة زمن المراسلة، للطرفين هي الألمانية، كما هو وطنهما، مكان المراسلة، ألمانيا، والحديث في الرسالة هو عن وطن قادم ولكن عن لغة قديمة[11].

يعتبر روسنسفايغ أن الصهيونية نفسها هي علمنة لليهودية ويرى شوليم أن يهودية الشتات توجد في حالة موت كلينيكي، وبعد إقامته بفلسطين لثلاث سنوات، لاحظ شوليم أن ثمة خطر حقيقي من مخاطرة الصهيونية بمشروع العلمنة[12] الذي يمر أولا عبر اللغة.

إن الاختلال الأساسي في المشروع الصهيوني يكمن في طرح مسألة اللغة. ومن هنا يأتي الشر بثلاثة أوجه: التهديد (الخطر) ثم الفشل، وقبلهما التدنيس (تدنيس المقدس)[13]، وهو ما كان يسمى في فلسطين بتحيين اللغة العبرية وما شرع فيه إليعازر بن يهودا منذ بداية القرن الماضي: معالجة العبرية التوراتية لكي تستجيب لمتطلبات التواصل اليومي التقني والوطني والدولي لدولة عصرية. لكن تلك اللغة كانت معدة لكل شيء ما عدا الإعلام. وتمثل عملية تحيينها تحويلا للغة أو لقائمة من الأسماء إلى وسيط إعلامي. وهنا مكمن الشر اللغوي ذي الأصل السياسي، الذي لا ينتبه إليه الصهاينة ولا يدركون "الكارثة" التي يؤدي إليها. ويتمثل الشر أولا في ضياع اللغة المقدسة (العبرية)، يعني ما هو جوهري في الحركة الصهيونية، وكذلك انتقام اللغة المقدسة من الذين يتكلمونها (يدنسونها) في طبعتها المحينة.

لكن اللغة موضوع الإنذار، وموضوع العلمنة والتحيين، هي لغة مقدسة وأجنبية في الوقت نفسه، وهنا يتساءل دريدا إذا كان من الممكن أن نتكلم لغة مقدسة كلغة أجنبية. إن العبرية هي أكثر من لغة أم بالنسبة لطرفي المراسلة في هذا السياق، هي لغة أم أسمى[14]. ويحاول مستعملو اللغة العبرية جعلها تلبي الاحتياجات الفورية للمتكلمين وذلك بإفراغها من الحمولة المقدسة التي تتمتع بها كلماتها، حسب تعليق مترجم الرسالة[15]، لكن شوليم، كاتبها يرى أن تلك الحمولة تستمر من خلال اللاشعور الجمعي للمتكلمين وفي ثقافتهم.

3- تجربة جاك دريدا مع المواطنة الممنوحـ/ـة والأحادية اللغوية عند الآخر

إن تلقي دريدا للخطاب الذي تحتوي عليه هذه الرسالة متأثر بكثير من الوضوح بتجربته الشخصية مع اللغة. فلغته العبرية، كيهودي، لم تعد، في طبعتها الأصلية، العبرية المعيارية إن صح الوصف، لغة أم لأحد منذ قرون؛ ولغته العربية أو الأمازيغية، كجزائري المنشأ، أبا عن جد، ليست في متناوله وليست لغة أمه، ولغته الفرنسية، لغة طفولته ومدرسته ومؤلفاته،

[10] - Ibid, p. 30-31.

[11] - يطرح دريدا السؤال حول اللغة التي يجب أن يدق بها ناقوس الخطر: هل باللغة العبرية نفسها أم من خارجها وبلغة أخرى؟

[12] - Ibid, p. 18.

[13] - Ibid, p. 20.

[14] - archi-maternelle

[15] - Derrida 2005, p. 99.

ليست لغته، بالتعريف، فهي لغة فرنسا، وهو شخص[16] منحته فرنسا جنسيتها. بمعنى أن الفرنسية بالنسبة لدريدا هي لغته التي منحها له الآخر، وهو يتكلمها باعتبارها لغة الآخر، التي يجيد استعمالها[17].

نحن الآن، من خلال هذا الخطاب، نقوم بقراءة من الدرجة الرابعة على الأقل، فدريدا ينتج خطابه حول خطاب كاتب الرسالة الذي ينتجه حول خطاب الحركة الصهيونية الداعي إلى علمنة اللغة العبرية، ونحن نستعمل اللغة العربية، لقراءة نص دريدا المكتوب بالفرنسية عن نص شوليم المكتوب بالألمانية حول نقاش حول اللغة العبرية. ومع ذلك نلتقي في عدة نقاط، تتحدى الأحادية اللغوية المتكررة عبر درجات هذا النقاش. من الأحادية اللغوية المفترضة بين طرفي المراسلة، إلى الأحادية اللغوية العملية والمفترضة عند دريدا إلى الأحادية اللغوية المحاطة بترسانة من الأسئلة المغيبة في سياق كتابة هذه الفقرات.

إننا نشتغل لإنتاج هذا الخطاب داخل لغة هي اللغة الوطنية والرسمية لفضاء ثقافي احتضن ميلاد ونشأة وكتابة جاك دريدا، لكننا في الوقت نفسه في كثير من الأحيان، إن لم يكن في أغلبها، نتلقى الخطاب الدريدي، مترجما إلى اللغة العربية - لغتنا المفترضة ولغته الافتراضية، بحكم كونه الآخر المحلي في نظر اللغة الفرنسية ومنظومتها الثقافية – وهي ترجمة قام بها إخوة من المشرق العربي عن ترجمات إنجليزية وأمريكية. وإلى اليوم يحاول المشتغلون في حقل اللغة العربية وثقافاتها استيعاب الخطاب الدريدي واستنباته داخل اللغة العربية، لكن الصعوبات على ما يبدو أكثر مما نتصور.

يمكننا تحليل هذه الظاهرة المحاصرة بالغربة – وربما الاغتراب أيضا – بالصراعات المتكررة والمركبة بين اللغات التي تتنازع الإنسان في منطقة المتوسط وهي اللغة العبرية (المقدسة) في نظر اليهود والتي يجب تحيينها في نظر الصهاينة، واللغة العربية (لغة القرآن ولغة أهل الجنة، وسنقف عند هذه النقطة في الفقرة الخامسة) والتي كثيرا ما نشهد نوعا من المرافعة من أجلها من طرف كتاب ومفكرين عجزوا عن التحكم فيها والكتابة بها، واللغة الفرنسية (لغة الهيمنة) التي يفرضها الواقع السياسي والثقافي والعلمي في منطقة المتوسط، ولغة العولمة التي تفرضها تحولات القرن الحالي على المستوى العالمي، إلى جانب اللغات المحلية المقتصرة على دور ثانوي في الصراع ولكنها ليست غائبة عن الحياة اليومية ولا عن مجريات الأحداث. ولعل سبب الصراع يكمن في الأحادية اللغوية التي تحاول أن تتحلى بها كل من هذه اللغات. إذ لا يمكن أن نتاجهل الصراع الدائر بين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية حول الحضور السياسي والثقافي والعسكري والاقتصادي في منطقة المتوسط، وهو صراع في بعض الأحيان يستخدم اللغات المحلية لهذه المنطقة كوسيلة للمواجهة. كما لا نتجاهل الصراع بين اللغة الفرنسية واللغة العربية حول مساحة التواجد والانتشار في المنطقة وفي مكونات الهوية وفي مختلف التعابير الثقافية، ومن خلالها في الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية، ودائما بمنطق

[16] - هو sujet وليس مواطنا citoyen، منحته الإدارة الفرنسية الجنسية الفرنسية بقانون كريميو، وسحبتها منه سنة 1942 بعد وقوعها تحت الاحتلال النازي، ثم أعادتها إليه. لقد حدث ذلك مع يهود الجزائر وليس مع كل سكان الجزائر من غير الأهالي المسلمين آنذاك.

[17] - Derrida, J. Le monolinguisme de l’autre ou la parole d’origine. Galilée, Paris 96.

الأحادية اللغوية ذات المنحى الإقصائي والتناقضي. ولعل هذه النقطة تفتح لنا شهية لطرح السؤال حول مفهوم اللغة عند واحد من أهم مصادر دريدا خلال الستينيات[18] من القرن الماضي، وواحد من اللسانيين أصحاب المفاهيم الأكثر حضورا في البحوث حول الأسئلة اللسانية منذ تلك الفترة إلى الآن، لكن نظريته، الغلوسيمية، ما تزال غائبة، كنظرية أو كمشروع نظري[19]، عن واجهة السؤال اللساني والسيميائي بصورة عامة.

4 - اللغة في تصور هيلمسلاف: تقطيع يشكل العالم ويتشكل من خلاله

يتصور هيلمسلاف اللغة نسقا من الجزيئات القادرة على تشكيل علامات تستعمل للتعبير والتواصل، ولكنه نسق لا يتشكل قبل العالم الذي يعبر عنه ولا بعده، بل هو يتشكل معه. فاللغة تقطيع خاص للعالم يتشكل مع تشكل ذلك العالم. ويعتمد في ذلك على شواهد كثيرة من اللسانيات المقارنة حيث يتبين أن كل لغة تعبر عن العالم بطريقتها الخاصة. فاللغة (بنسقها ونصوصها وعلاماتها) تقبل التقسيم إلى صعيد للتعبير وصعيد للمضمون، وكل منهما يقبل التقسيم إلى شكل وخامة[20]. والعالم هو المادة التي تتحول إلى خامة بعد أن يدخل عليها الشكل تحويرات تنقلها من حالة الهيولى غير القابلة للتحديد إلى حالة ما يسمى بالمعنى المرتبط بالعلامات اللغوية وما ينتجه تركيبها من دلالات[21].

اللغة عند هيلمسلاف (بعد دي سوسير)[22] هي شكل خالص وليست خامة. وهي في الوقت نفسه شكل التعبير وشكل المضمون مجتمعان. وهذا الشكل لا يتطابق بين لغة وأخرى بل هو ما يحدد اختلاف اللغات فيما بينها. ويجعل كل لغة تجربة مستقلة في التشكل وتشكيل العالم، وكذلك تجربة مستقلة في التطور وما يواجهه تطورها الطبيعي من سياسات لغوية إدارية وأكاديمية تسعى إلى التحكم في ذلك التطور وتوجيهه. ويمكننا أن نضيف هنا ما تشهده اللغات من تدخلات غير رسمية وغير معلنة للاستحواذ على ذلك التطور الطبيعي وتوجيهه لخدمة مواقف سياسية وإيديولوجيات معينة.

حسبنا أن نفهم من هذا التصور للغة أن قدرها أن تكون أحادية، وأن الإنسان، مستعملها، لا يمكن أن يكون إلا أحادي اللغة؛ وهو ما يتأكد مع النفي القطعي لهيلمسلاف لجدوى السعي وراء مشاريع الترجمة الآلية[23]، إذ أن طبيعة اللغة ترفض التطابق الذي يسمح بتحقيق مثل تلك المشاريع.

لكن الخطورة تكمن في اللغة التي نتصور أنها مقدسة، ونتعامل معها على أنها لغة تشكلت لتكون مقدسة بامتياز ونضع جدارا بينها وبين التطور المعجمي وانخراط المعاني في حركية التاريخ، ونتجاهل التحولات التي تصيب نظامها الفنولوجي

---

18 Derrida, J. De la grammatologie. Minuit, Paris 1967.

19 -بلعربي، جمال. قراءة في الأسس الإبستيمولوجية لسيميائية هيلمسلافمن خلال مشروعه التأسيسي حول نظرية اللغة. رسالة دكتوراه. جامعة الجزائر 2، الجزائر 2012 (مخطوط).

20 - Derrida 1967, p. 84.

21 Hjelmslev, L., Prolégomènes à une théorie-du langage, Paris, Les Éditions de Minuit, 1968-1971.

22 Saussure, F. de, Cours de linguistique - générale, Paris, Payot & Rivages, 1995.

23 BADIR, Sémir. Hjelmslev. Les Belles - Lettres. Paris 2000

والتي تصيب نظامها التركيبي، ونصر على أنها لغة لا تتغير عبر القرون وأنها لم تتغير. إننا بمثل هذا الموقف نتجاهل واقع اللغة الحقيقية التي نستعملها ونتوهم أننا نستعمل لغة أخرى نعتقد أنها هي المثال وهي المعيار.

عندما ننظر إلى اللغة العربية كتجربة لسانية نجدها قد امتدت عبر أكثر من عشرين قرنا من الزمان وعاشت عددا من التقاطعات (والمواجهات الصدامية) مع الثقافات واللغات الأخرى، بدأت باللغات والحضارات القديمة التي واكبت نشأتها، ثم اللغات والثقافات التي تصادمت معها أثناء الفتوحات الإسلامية وتوسع رقعتها الجغرافية، ثم لغات وثقافات الاستعمار، ثم هي الآن تواجه تجربة العولمة ووسائط التواصل الحديثة. كل هذا يثير قائمة طويلة من الأسئلة التي للأسف الشديد ما تزال غائبة عن النقاش العلمي والمنهجي المنتِج.

لقد انتقلت اللغة العربية من لغة ثقافة وثنية إلى لغة النص المنزل ولغة القرآن الكريم، ثم إلى لغة العلم والفلسفة خلال ما يسميه الأوروبيون بالقرون الوسطى، ونسميه نحن بالعصر الذهبي. ونقلت هذه اللغة أصول الفكر اليوناني، جوهر العقل المصاب بالمركزية الإغريقية، إلى أحفاد الفكر اليوناني، وهي تنتقل الآن إلى لغة تجمع بين الدين، أحيانا في أشد صوره تطرفا، ولغة التواصل الرقمي والبحث العلمي، لتطمح إلى مضاهاة أكبر لغات العالم تأثيرا في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا. نحن إذن أمام صميم سؤالنا: إمكانية علمنة اللغة. تخليص اللغة من حمولتها المقدسة أو تعايش المقدس والعلماني في اللغة نفسها؟ أم أننا أمام حالة مرعبة: اللغة الثالثة، كمفهوم مبهم[24]، لمن لا لغة له؟

5 - أسئلة اللغة العربية: بين القداسة والراهن المتجدد

لا يمكننا أن نتجاهل سؤال المواجهة بين القداسة والراهن المتجدد ونحن نتحدث عن تطوير اللغة العربية أو خدمتها أو النهوض بها أو ما شئنا من العبارات والأوصاف. إننا في جوهر الموضوع نستشعر نوعا من التأخر تعاني منه اللغة العربية بالمقارنة مع اللغات الحية؛ ونبني هذه الملاحظة على أساس ما تشهده اللغات الحية من مواكبة – طبيعية جدا – لمنتجاتها الحضارية من تقنيات ومفاهيم فلسفية ونظريات وابتكارات في مختلف المجالات. ونحن نسحب سؤال التأخر الحضاري الذي تعاني منه المنطقة العربية إلى ميدان اللغة العربية وننتهي إلى اقتراح سياسات ومشاريع واستراتيجيات من أجل تمكين اللغة العربية من مواكبة مستجدات الزمان. ونترجم هذه الاقتراحات إلى برامج تعليمية وترجمية وبحثية ومعجمية تحاول أن تسد عجز اللغة العربية وتجعل مستعملها في غنى (؟) عن اللغات الحية الأخرى.

أثناء كل ذلك، نحن في الواقع نقوم بعملية تحيين للغة العربية وتوسيع دائرة استعمالها، على حساب لغات أخرى تقاسمها المكان والسلطة والتاريخ والمعرفة والهوية.. الخ، لكن بعيدا عن النقاش الفلسفي الشامل وعن الطرح المعرفي للأسئلة، لأن التدخل في هذا المستوى يتم إلى غاية الآن على يد السياسيين.

[24] - Derrida 2005, p. 33.

وبطبيعة الحال، يتم لأسباب سياسية ومن منطلقات وحسب تصورات نفترض أنها سياسية.

بالنتيجة نجد خطابات تتسلل إلى ميدان البحث العلمي تكرس تصورات للغة العربية تعتمد فيها على قداسة النص وعلى منطلقات ومسلمات دينية.

لن نحاول مناقشة مثل تلك الخطابات لأننا نعتبرها ذات طبيعة تخرج عن نطاق إشكاليتنا، بل وتخرج عن نطاق النقاش العلمي والفلسفي، فهي خطابات دينية. ولكننا في المقابل نحاول أن نتعرف على مبررات وجودها وعلى تأثيرها الممكن، وبشكل خاص، على معقوليتها.

إننا أمام حقيقة لا يمكن ردها، وهي أن اللغة العربية ذات أداءات متعددة ومختلفة وهو ما يجعل مفهوم "اللغة العربية" في حد ذاته مفهوما غامضا، من الناحية العلمية، أي من وجهة نظر ما يمكن أن نسميه باللسانيات العربية. ويمتد ذلك التعدد وذلك الاختلاف عبر الزمان والمكان والمجالات المعرفية. وفي الوقت نفسه تتفاعل تلك الأداءات فيما بينها ومع ما يحيطها من لغات وعلامات (دوال ومدلولات ومراجع) لغوية، دون أي تفكير علمي وفلسفي أصيلين يملكان أدوات التحليل وإعمال العقل وما يكفي من القدرة على صياغة النتائج.

لكننا أمام واقع أخر لا يمكن تجاهله، ويتمثل في انتشار فكر ديني متطرف بشكل متزامن مع حملات التعريب التي شهدتها الأقطار العربية والمد القومي العربي الذي كان يراهن على بعث حضاري أساسه اللغة، ولا نعتقد أنه من الحكمة أن نتجاهل مثل هذه الحقيقة، ولكن لن نتسرع في تحديد نوع العلاقة بين الواقعين.

لذلك نكتفي بطرح بعض التساؤلات الملحة في هذا السياق: ألم نخطئ في تصور ووضع وتطبيق السياسات اللغوية في منطقتنا العربية خلال ما يقارب القرن من المشروع النهضوي؟ ألا تحتاج أسئلة اللغة العربية وأسئلة اللغة بصورة عامة في منطقتنا إلى مقاربة ومعالجة وصياغة جديدة هي أجدر بأن تواكب عصرها؟

خاتمة:

لم تنشأ اللغة العربية لغة مقدسة، بل نشأت لغة وثنية بامتياز، فهي لغة المعلقات وسجع الكهان قبل أن تكون لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم تكن يوما لغة خاصة بالتعبد، اللهم إلا عند بعض المسلمين من غير الناطقين بها والذين تطرح المسألة بالنسبة لهم خارج سياق هذا النقاش[25]. بل إنها أثناء تحولها من لغة محلية لقبيلة محدودة النطاق في شبه الجزيرة العربية إلى لغة رسمية وقومية لأقوام عديدين ومساحات إمبراطورية، تحولت أيضا إلى لغة للتواصل السياسي والثقافي والنشاط التجاري والعسكري، ولغة للبحث العلمي، وإلى لغة واصفة أسست نظريتها اللسانية تأسيسا علميا بكل مواصفات العلم من شروط منهجية وجهاز مصطلحي ومفاهيمي ومدونة بحث لم يعرف التاريخ البشري أكثر منها دقة وصرامة وتمحيصا. وأكثر من ذلك أنها تحولت إلى لغة تستوعب ثقافات العالم وتنقلها بين القارات. لقد

25 ـ بالنسبة للمسلمين غير الناطقين بالغة العربية والذين يمارسون الشعائر بواسطتها، ليست المشكلة مشكلة لغة مقدسة بالمعنى نفسه الذي نجده عند اليهود أو المسيحيين واللغة اللاتينية، لأنهم يتعاملون مع اللغة العربية على أنها لغة الأقطار العربية وأنها لغة حية تمارس وجودها من خلال الحياة اليومية للإنسان في الأقطار العربية، ونعتقد أن هذا يختلف عن اللغة المقدسة التي لا يستعملها أحد سوى رجال الدين والكهنوت.

عاشت تجربة العولمة في أجلى صورها. صورة اللغة العالمية. لغة العولمة.

يعني ذلك أن تحيين اللغة العربية لا يتقاطع بالضرورة مع عملية العلمنة، فهي ليست لغة دينية فقط، ومع ذلك يجب أن يعي مشروع أي تحيين ممكن علاقتها مع الدين وموقفه تجاهها. كما أن اللغة العربية لم تنحصر مساحتها بسبب تشتت مستعمليها عبر الجغرافيا، وجغرافيا اللغات واللهجات، بل هي في تصورنا قد استنفدت قوتها الدافعة التي جعلتها تبني حضارة قرون عديدة لتعيش التراجع الحضاري الذي شهدته مجتمعاتها، ولتقف منبهرة من حضارة صاعدة انبنت على ما نقلته إليها من معرفة علمية إنسانية. ومع ذلك قاومت قرونا من الحصار الثقافي والحضاري، وهي الآن تتشكل من جديد كلغة راهنة، يتنازعها المد الديني والواقع العلماني بكل المعاني وتتحداها اللغات الحية في جغرافيتها.

تحتاج هذه اللغة الآن إلى تأسيس حقيقي لنظرية لسانية تستوعب ما يطرحه واقعها من أسئلة وليس إلى ترجمة ما تنتجه اللغات الأوروبية من نظريات لسانية تنقل معها إشكاليات قد لا تكون لها أية علاقة بواقع اللغة العربية وخصوصياتها. ولا نعتقد أن هذا التأسيس يستطيع أن يخرج عن تاريخ اللغة نفسها ويتجاهل الأصول النظرية الأولى للبحث اللساني العربي. وهنا أيضا يعود سؤالنا المحوري في هذه الفقرات ليواجهنا من جديد؛ فقد ارتبط تأسيس البحث اللساني العربي القديم بالنص المقدس، لكنه لم يحتكم إلى أية قداسة غير قداسة العلم. فقد كانت المدونة من الكلام السابق في الاستعمال على النص المقدس. ولذلك يجب أن تنطلق النظرية اللسانية العربية من تاريخها ومن راهنها في الوقت نفسه، لتتجاوز الفجوة التي أحدثتها الصدامات الحضارية في المنطقة العربية خلال القرون الماضية وما أنتجته من تصدعات فكرية واجتماعية.

المراجع:

BADIR, Sémir. *Hjelmslev*. Les Belles Lettres. Paris 2000 -
.Derrida, J. *De la grammatologie*. Minuit, Paris 1967 -
.Derrida, J. *Le monolinguisme de l'autre ou la parole d'origine*. Galilée, Paris 96 -
.Derrida, J. *Les yeux de la langue*. L'Herne, Paris 2005 -
Hjelmslev, L., *Prolégomènes à une théorie du langage*, Paris, Les Éditions de -
.Minuit, 1968-1971
.Saussure, F. de, *Cours de linguistique générale*. Payot & Rivages, Paris 1995 -
-بلعربي، جمال. قراءة في الأسس الإبستيمولوجية لسيميائية هيلمسلاف من خلال مشروعه التأسيسي حول نظرية اللغة. رسالة دكتوراه. جامعة الجزائر 2، الجزائر 2012 (مخطوط).
(1) حاج صالح، عبد الرحمان. تأثير النظريات العلمية اللغوية المتبادل بين الشرق والغرب: سلبياته وإيجابياته، ضمن "بحوث ودراسات في اللسانيات العربية"، ENAG الجزائر 2007 ص 267- 280.
(2) حاج صالح، عبد الرحمان. مستقبل البحوث العلمية في اللغة العربية وضرورة استثمار التراث الخليلي، ضمن "بحوث ودراسات في اللسانيات العربية"، ENAG الجزائر 2007 ص 44- 57.
(3) حاج صالح، عبد الرحمان. منطق العرب في علوم اللسان. منشورات المجمع الجزائري للغة العربية. الجزائر2009.
(4) دريدا، جاك. الصوت والظاهرة مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل. تر. إنقزو، فتحي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2005.
(5) هيلمسلاف، لويس. حول مبادئ نظرية اللغة. تر. جمال بلعربي. منشورات الاختلاف، الجزائر 2018.